سيراف وكيش (قيس) وعدن

(من القرن الثالث الهجرى حتى السادس)

بقلم الدكتور عطية القوصى

حرص الخلفاء العباسيون ، منذ أن أقاموا خلافتهم فى بلاد العراق ، على أن يجعلوا هذه البلاد مركز الثقل السياسى والحضارى فى الدولة الاسلامية(١) . ولتحقيق ذلك كان عليهم أن يحولوا طريق تجارة العالم من البحر الأحمر والبلاد المطلة عليه إلى الخليج العربى وبلاد العراق .

ونجح العباسيون ، فى عصر خلافتهم الأول ، فى تحقيق هذه السياسة ففقد طريق البحر الأحمر نشاطه وأصبح دوره التجارى ثانوياً . وانتقل هذا النشاط تدريجياً إلى الخليج العربى وازدهرت الموانى التى تقع عليه . ومن ثم حلت موانىء هذا الخليج وهى : سيراف والبصرة والأبله ثم كيش محل ميناء الفرما والفلزم فى استقبال سفن الشرق الأقصى(٢) . وتدفقت سلع ومتاجر الشرق على هذه الموانىء ، وغدت التجارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى مظهراً من مظاهر أبهة الاسلام ، وأخذت سفن المسلمين وقوافلهم التجارية تجوب كل البحار وتصل إلى أقصى البلاد(٣) .

وأصبحت مدينة سيراف ، بسبب هذا التحول التجارى ، أهم مدن العالم التجارية فيما بين القرنين الثالث والرابع الهجريين . وصارت محطة للسفن

القادمة من الهند والصين والمتجهة إليها من ميناء كانتون ومركز تجميع وتصريف للتجارة العالمية(٤) .

ولقد بنى الخلفاء العباسيون هذا الميناء على الجانب الشرقى من الخليج العربى(٥) لتسهيل وصول سفن تجار الصين الكبيرة التى لم تكن تستطيع الوصول إلى مدخل دجلة بسبب الرمال التى تأتى مع هذا النهر وتترسب عند مدخله(٦) . وذكر « ياقوت » أن السفن القادمة إلى سيراف لم تكن ترسو فيها ولكن بالقرب منها عند موضع يقال له « نابد » وهو خليج ضارب بين جبلين على بعد ميلين من المدينة ، « وهو ميناء جيد للغاية وإذا وصلت المراكب إليه أمنت جميع أنواع الرياح »(٧) .

وكانت السفن فى العادة حين تترك سيراف تصل إلى مسقط ومنها إلى كولون وتستغرق هذه الرحلة مدة شهرين . ومن كولون تسير السفن إلى شبه جزيرة الملايو ومنها إلى الصين وميناؤها خانقو(٨) .

ولقد حدد سليمان التاجر السيرافى مسار السفن التجارية الخارجة من ميناء سيراف إلى الصين بقوله(٩) : « إن أكثر السفن الصينية تحمل من سيراف وأن المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرها إلى سيراف فيبعى فى السفن الصينية بسيراف وذلك لكثرة الأمواج فى هذا البحر وقلة الماء فى مواضع منه . والمسافة بين البصرة وسيراف مائة وعشرون فرسخاً(١٠)، فإذا عبىء المتاع بسيراف استقدموا منها الماء وخطفوا(١١) إلى موضع يقال له مسقط وهو آخر عمل عمان والمسافة من سيراف إليه نحو مايتى فرسخ . وفى شرقى هذا البحر من البلاد فيما بين سيراف ومسقط سيف بنى الصفاق وجزيرة ابن كاوان ، وفى هذا البحر جبال عمان وفيها الموضع الذى يسمى الدردور وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية . وإذا جاوزنا الجبال صرنا إلى موضع يقال له صحار عمان

ومنه تخطف المراكب إلى بلاد الهند وتقصد إلى كولم ملى والمسافة من مسقط إلى كولم ملى شهر على اعتدال الريح إلى بحر هركند » .

ولقد ذكر المؤرخ الجغرافى المسعودى أن سفن سيراف كانت تلتقى مع سفن عمان عند ميناء كله Kolah على الشاطىء الغربى من شبه جزيرة الملايو حيث تلتقى هناك بسفن الصين . وقد كانت بخلاف ذلك قديماً إذ كانت تصل إلى الصين كما كانت مراكب الصين تأتى بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبله والبصرة(١٢) .

وكانت سفن سيراف كبيرة الحجم وتدهن عادة باللون الأبيض(١٣) ، وكانت تتجنب الإبحار فى البحر الأحمر بسبب كبر حجمها وخطورة الملاحة فى هذا البحر . وكانت تكتفى بالإبحار فيه إلى جدة التى كانت تفرغ فيها حمولتها وترسل منها إلى مصر(١٤) فى مراكب البحر الأحمر (جلاب القلزم)(١٥) .

ولقد أفادت سيراف من التجارة فائدة كبرى وأصبحت كما يقول عنها الاصطخرى « الفرضة العظيمة لفارس وأغنى بلادها »(١٦) ، وذلك بسبب المكوس التى كانت تحصلها من سفن التجار الواردة إليها والصادرة منها على البضائع العالية القيمة التى كانت تحملها . ويضيف الاصطخرى عن هـــذه البضائع قوله : « ... وكان يحمل من سيراف ما يقع إليها من أمتعة البحر من العود والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والأبنوس والفلفل والصندل وسائر الطيب والأدوية والتوابل التى يكثر تقصيها إلى جميع فارس والدنيا كلها وسيراف فرضة لهذه المواضع »(١٧) .

ولقد انعكس غنى مدينة سيراف على مساكنها فبدت فى غاية البهاء بسبب مغالاة أهلها فى الإنفاق على عمارتها . فكانت مبنية من خشب الساج المستورد من زنزبار ، وكانت تتكون من عدة طوابق وتصل إليها المياه

من ينابيع منحدرة من جبل الجام الذى تقع عند سفحه(١٨) . وامتدت مساكن المدينة على طول الساحل متشابكة مع بعضها كعقد متصل . وكان الرجل من أهلها ينفق على عمارة داره زيادة على ثلاثين ألف دينار(١٩) .

وذكر الاصطخرى انه برغم جمال مبانى سيراف فإنه ليس فى هـــذه المدينة من جميل سوى الأبنية(٢٠) . ولم يكن بها زرع ولا ضرع ولم تحط بها بساتين أو أشجار أو نخيل . ولذلك فأهلها يستوردون خضرهم وفاكهتهم وحاجياتهم المختلفة من خارج المدينة(٢١) ، من قلعة السامران الواقعة على جبل الجام(٢٢) . وأضاف الاصطخرى أن مناخ هذه المدينة حار طول العام وشديد الحرارة فى فصل الصيف وذلك لاحتضان جبل الجام لها(٢٣) .

وكانت التجارة هى كل ثروة أهل سيراف . فلقد اتقن أهل سيراف هذه الحرفة وعملوا فى تجارة الشرق سنين طويلة حتى صاروا الغالبين على سواحل كل الخليج وكل مدنه(٢٤) . وكان أهل سيراف يغيبون فى تجارة الشرق أحياناً سنوات عديدة يقضونها خارج سيراف ويعودون إلى بلادهم بالأموال الكثيرة ، لذلك كونوا من وراء هذه التجارة ثروات طائلة(٢٥) . وأورد الاصطخرى أن من أهل سيراف من أحب ركوب البحر حتى أنه قضى به كل عمره . ولقد بلغه أن رجلا من سيراف ألف البحر حتى ذكر أنه لم يخرج من السفينة نحواً من أربعين سنة وكان إذا قارب البر أخرج صاحبه لقضاء حوائجه . وكان فى كل مدينة يتحول من سفينة إلى أخرى إذا انكسرت أو تشققت فاحتيج إلى إصلاحها(٢٦) . وتظهر ثروات تجار سيراف من الأرقام التى ذكرها المؤرخون . فلقد ذكر أن تاجراً واحداً من تجارها أحضر فى مرة إلى شركائه من مدينة خانقو بالصين بضاعة قيمتها نصف مليون دينار(٢٧) . وذكر أيضاً أن ثروة أحد تجار سيراف بلغت أربعة ملايين دينار(٢٨) . كما أورد الاصطخرى أنه بلغه أن من أهل سيراف من يجوز ماله على ستين مليون درهم لم يكتسبها إلا من تجارة البحر(٢٩) .

ورغم غنى أهل سيراف وعظم ثرواتهم فلقد كانوا يتميزون بالبساطة في ملبسهم حتى أنك لا تستطيع أن تميز السيد عن أجيره لأنه لم يكن يتميز في لباسه عنه(٣٠) . كذلك اتصف أهل سيراف بضحالة تفكيرهم رغم احترافهم التجارة(٣١) . وفي الوقت ذاته اتصفوا بتدينهم الشديد وعدم تعصبهم الديني وتسامحهم مع سكان بلدهم من أهل الملل المختلفة(٣٢) . وكان يسكن المدينة بعض النصارى وبعض تجار اليهود . فلقد ذكر الرحالة بنيامين التطيلي الذي زار بلاد الشرق الإسلامي في القرن السادس الهجري (١٢م) أنه كان يعيش بسيراف خمسمائة يهودي كانوا يعملون بالتجارة(٣٣) . كذلك أورد أن عامل سيراف في أوائل القرن الرابع الهجري كان يهودياً يدعى « روزباه »(٣٤) .

وأورد المسعودي أنه سافر من الخليج العربي مع تجار سيراف مرات عديدة وأشاد بمهارة البحارة السيرافيين وتحديهم للأخطار التي تعترض الملاحة في أعالي البحار . ومن هؤلاء النواخذة الذين ركب معهم : محمد ابن الريدوم السيرافي وجوهر بن أحمد المعروف بابن نسوة الذي غرق بمركبه في البحر . كذلك ذكر أنه ركب مياه الخليج لآخر مرة سنة ٣٠٤ هـ من جزيرة قنبلو إلى مدينة عمان على مركب أحمد وعبدالصمد أخوي عبدالرحيم ابن جعفر السيرافي(٣٥) . وأضاف المسعودي بأنه كان صديقاً لأبي يزيد السيرافي(٣٦) ، الذي يعتبر هو وأستاذه سليمان التاجر السيرافي أشهر الملاحين المسلمين في القرنين الثالث والرابع الهجريين(٣٧) . ويستمد أبو يزيد شهرته من إتمامه لكتاب صلة الصين والهند الذي ألفه سليمان التاجر(٣٨) . ولقد عاش سليمان في أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وقام برحلات عديدة إلى الهند والصين وكانت نقطة انطلاقه مدينة سيراف(٣٩) . وهو يعتبر من أشهر رجالات سيراف ويستمد شهرته من كتاب رحلته الذي كتبه سنة ٢٢٧ هـ ويعرف بكتاب صلة الصين والهند(٤٠) . ولقد سلك سليمان في

رحلاته طريق التجارة إلى الهند الذى كان متبعاً فى العصر العباسى الأول ، وكان الملاحون يبدأون فيه رحلتهم إلى بلاد الهند والصين إما من بغداد والبصرة أو من سيراف حتى ساحل ملبار وجاوة ثم الصين(٤١) .

ولقد نبغ أهالى سيراف فى علم البحار والملاحة وتوارث الأبناء عن الآباء أسرار هذه المهنة حتى أصبحت هنالك عائلات متخصصة فى هذا الشأن صار لها تاريخ طويل فى هذا المضمار . فنجد فى كتاب « عجائب الهند »(٤٢) يرد ذكر اسم عائلة سعدان التى اشتهر فيها بهذا الفن الأخوان محمد وعلى ثم أبناؤهما من بعدهما . كذلك أورد البحار الشهير « ابن ماجد »(٤٣) أسماء ثلاثة شيوخ من سيراف كان لهم ولأسرتهم من بعدهم نبوغ كبير فى فن علم البحار والملاحة . وهؤلاء الشيوخ الثلاثة هم : لحى بن كهلان (منتصف القرن الثالث الهجرى) ، وسهل بن أبان (النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى) ومحمد بن سعدان (النصف الأول من القرن الرابع الهجرى)(٤٢) .

ونبغ من أهل سيراف عدد من الكتاب وأصحاب الوظائف الكبرى فى الدولة ومنهم « ماهان بن بهرام » الذى كتب لعلى بن الحسين بن بشر ومحمد بن واصل وجمع له الدواوين واستقل بها . كذلك أخوه كامل بن بهرام ويكنى بأبى الليث وكان رئيس ديوان الرسائل . ومنهم الحسن بن عبد الله ويكنى بأبى سعيد(٤٥) . ومن رجال النحو والفقه والحديث نبغ أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافى(٤٦) ، الذى كان يقوم بالإفتاء فى جامع الرصافة فى بغداد مدة أربعين عاماً . وكانت تصله الرسائل من الحكام والوزراء من مختلف بلاد العالم الإسلامى(٤٧) .

وظلت سيراف مزدهرة حتى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وبدأت تفقد مكانتها التجارية العالمية حين تحولت السفن التجارية عنها إلى ميناء جزيرة كيش (قيس)، فافتقرت المدينة وخلت من معظم

سكانها وأصابها فقر بعد غنى وذل بعد عز . ويرجع تدهور سيراف ونهاية أمرها إلى عوامل ثلاث :

أولها : تدمير الزلازل لها ، وثانيها نهاية نفوذ البويهيين فى العراق ، وثالثها : ازدهار ميناء جزيرة كيش وتحول السفن إليه .

أما عن الزلازل ، فلقد تعرضت المدينة فى سنة ٣٦٦ أو ٣٦٧ هـ/٩٧٧م لموجة زلازل عنيفة استمرت لمدة سبعة أيام متصلة دمرت الميناء تماماً(٤٨)، وبعد هذه الحادثة بوقت قليل انتهى نفوذ حكام الفرس البويهيين فى بغداد ، وكانوا يرعون ميناء سيراف ويعملون على نشاطه وازدهاره فلم يجد الميناء ، بفقدان مكانتهم ، من يعمل على إعادة عمرانه(٤٩) . أما عن العامل الثالث فهو ما سنتعرض له بشىء من التفصيل .

ولقد أشار ياقوت الحموى إلى التدمير الذى أصاب سيراف ، وذكر أنه حين زارها (بداية القرن السابع الهجرى) لم يشاهد شيئاً قائماً من مبانيها سوى جامعها . وأنه وجدها خاوية من السكان إلا من قلة فقيرة ما أوجب لهم المقام بها إلا حب الوطن(٥٠) . ويقول صاحب كتاب « فرس نامة »(٥١) أن نهاية سيراف التامة وقفر ميناثها كان فى عهد ركن الدولة خمارتكين أمير جزيرة كيش (قيس) الذى فى عهده تحولت التجارة تماماً إلى جزيرته ، والذى اتخذ ميناء سيراف قاعدة لبناء سفنه الحربية(٥٢) . كذلك أورد نفس القول المؤرخ الفارسى حمـــد الله المستوفى صاحب كتاب « نزهة القلوب »(٥٣) .

* * *

هذا عن سيراف ، أما كيش فهى جزيرة صغيرة فى الخليج العربى تقع بالقرب من حدود إيران على خط ٥٤° شرقاً ، ٢٦,٣٠° شمالا ، ويطلق عليها

العرب اسم قيس(٥٤) . ولقد أدى الموقع الممتاز لهذه الجزيرة فى الخليج إلى ازدياد أهميتها التجارية وخاصة حين تدهور أمر سيراف وجعلها تحتل مكانتها كمحطة كبرى لتجارة الشرق(٥٥) . ويقول ياقوت أنه منذ أن عمر ابن عميرة جزيرة قيس صارت فرضة الهنـــد وإليها منقلب التجار(٥٦) . ويضيف ياقوت بأنه شاهد هذه الجزيرة مراراً وأنها مليحة النظر ذات بساتين ونخيل وعمارات جيدة(٥٧) . وأن بها مغاص على اللؤلؤ وفى جزائر كثيرة حولها وكلها ملك صاحب كيش . ويشرب أهلها من آبار فيها ولخواص الناس صهاريج كثيرة لمياه المطر وفيها أسواق وخيرات(٥٨) . والطقس فى كيش شديد الحرارة فى فصل الصيف ، ورغم ذلك فلقد ظلت من أعمر بلاد فارس وأكثرها ازدحاماً بالسكان حتى القرن السادس الهجرى(٥٩) . فلقد كان يسكنها حوالى ١٥٠٠٠ نسمة وهم من أصل عربى(٦٠) . قال ياقوت أنه شاهد فيها جماعة من أهل الأدب والفقه والفضل وأنه كان بها رجل صنف كتاباً جليلا فيما اتفق لفظه وافترق معناه ويقع فى مجلدين ضخمين(٦١) . وقد نسب المحدثون إليها اسماعيل بن مسلم العبدى الكيشى قاضيها الثقة والذى روى عنه يحيى بن سعيد ووكيع وعبد الرحمن بن المهدى(٦٢) .

أما عن البيت الحاكم الكيشى فيذكر ياقوت أنها كانت تتبع صاحب عمان ، وأن صاحب عمان يملك بحرها وله مسكن فيها وله ثلثا دخل البحرين . وأن لملكها هيبة وقدر عند ملوك الهند لكثرة مراكبه ، وهو يتشبه بملوك الديلم فى شكله ولبسه وعنده الخيول العراب الكثيرة والنعمة الظاهرة(٦٣) . وأصل البيت الحاكم الكيشى من عرب بنى قيس من جنوب الجزيرة العربية ، وكانوا يقلدون الحكام البويهيين الفرس (الديالمة) فى ملبسهم ومظاهر أبهتهم(٦٤) .

وظلت كيش مزدهرة ومحطة تجارة الشرق العالمية فى النصف الثانى من

القرن الرابع وطول القرن الخامس الهجرى . وانعكست مظاهر الثراء على حكامها وعلى أهلها وعلى مظاهر العمران بالجزيرة فى ذلك الوقت[٦٥] . وكان حكام كيش يعاملون التجار فى بادىء الأمر الواردين إلى جزيرتهم معاملة طيبة وكانوا لا يتعسفون معهم فى جمع المكوس . إلا أنهم مع بداية القرن السادس الهجرى تغيرت معاملتهم للتجار المسافرين فى بحر عمان فقسوا عليهم وغالوا فى تقدير المكوس المفروضة على بضائعهم وزادوها زيادة كبيرة[٦٦] . ولقد أدى ذلك الأمر إلى أن يتحول كثير من تجار الشرق عن ميناء كيش إلى ميناء عدن وتفقد الجزيرة بذلك أهم موارد ثروتها .

وكان ميناء عدن قد بدأ فى استعادة مكانته التجارية السابقة[٦٧] ، وأخذ يسرق الأضواء عن موانىء الخليج العربى ، وجاء ازدهار عدن وبالاعلى ميناء كيش الذى أخذ فى فقدان مكانته التجارية العالمية بسبب تحول سفن تجار الشرق إلى عدن[٦٨] . ولقد زار كيش الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى فى منتصف القرن السادس الهجرى ، وهو الوقت الذى بدأت كيش فيه خريف عمرها ، وذكر نضوب مواردها وخلو موانيها[٦٩] .

ولم يتحمل حاكم كيش أن يحدث لجزيرته ما حدث لميناء سيراف وأن يسمح لميناء عدن أن يحرمه من مصدر ثروته خاصة وأن سعر البهار فى ذلك الوقت قد زاد بمقدار الثلث[٧٠] . لذلك قرر أن يوقف هذا الأمر بالقوة وأن يستخدم أسطوله فى تدمير عدن وإجبار سفن تجار الشرق على العودة قسراً إلى ميناء بلاده . ولقد قام حاكم كيش بالفعل بتنفيذ مخططه وهاجم بأسطوله مدينة عدن .

وكان يحكم عدن فى ذلك الوقت (النصف الأول من القرن السادس الهجرى) بنو زريع الاسماعيليون والموالون للخلفاء الفاطميين[٧١] ، نيابة

عن ولاة اليمن الصليحيين[٧٢]. وكانوا يرسلون ما يحصلونه من مكوس على سفن التجار إلى السيدة الحرة الصليحية[٧٣]. وكان يتقاسم حكم المدينة بيتان من هذه الأسرة وهما بيتا أبناء العم العباس ومسعود . ولقد حكم من فرع العباس أبناؤه زريع (٤٨٠ — ٥٠٤هـ) ثم أبو سعود، ثم سبأ (ولاه الخليفة الفاطمي الحافظ سنة ٥٢٥ هـ) . وحكم من فرع مسعود أبناؤه أبو الغارات ثم محمد ثم علي . وظل البيتان الزريعيان يتقاسمان حكم عدن مناصفة حتى سنة ٥٣٣هـ. ففي هذه السنة قام سبأ بعزل ابن عمه علي وانفرد بحكم عدن[٧٤] . ورغم أن سبأ توفي في نفس العام[٧٥] الذي استبد فيه بحكم عدن إلا أن أبناءه من بعده واصلوا ما فعله أبيهم وظلوا في حكم عدن دون مشاركة أبناء عمومتهم[٧٦] .

وحسب رواية ابن المجاور (ت ٦٩٠هـ/١٢٩١م) بأن الهجوم على عدن وقع سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٥م أي أنه وقع في الفترة التي كان يحكم فيها عدن أبناء العم سبأ بن أبي سعود وعلي بن أبي الغارات مناصفة (٥٢٥ — ٥٣٣ هـ/ ١١٣١ — ١١٣٨ م) . ولقد كان من نصيب سبأ قلعة الخضرة التي تتحكم في مدخل البحر والميناء بينما كان ابن عمه يتحكم في مدخل المدينة من ناحية البر .

ورغم عدم معاصرة ابن المجاور لهذا الهجوم إلا أنه لدينا ما يؤيد صحة هذه الواقعة وصحة التاريخ الذي ذكر أنها حدثت فيه . فهنالك وثيقتان من وثائق الجنيزة لشاهدي عيان شاهدا المعركة التي دارت في ميناء عدن أثناء مرورهما به تقريباً في نفس التاريخ الذي ذكره ذلك المؤرخ وتحدثا عنها في خطاباتهما . والشاهدان هم تاجران من تجار الكارم كانا في طريق عودتهما من رحلتهما بالهند مارين بعدن . والوثيقتان عبارة عن خطابين أرسل الأول شخص يدعى « باما » إلى سيده « ياجر » التاجر الذي كان بالهند . ولقد أرسل « باما » الخطاب من عدن أثناء مروره بها . والخطاب الثاني مرسل من عدن أرسله تاجر عائد من رحلته بالهند إلى تاجر آخر شريك له بالقاهرة يدعى أبو سعيد الدمياطي[٧٧] . والخطاب الثاني يؤكد صحة التاريخ الذي

ذكره ابن المجاور عن الحادثة ، ذلك لأن اسم الشخص المرسل إليه الخطاب هو الإسم العربى للتاجر اليهودى « حلفون بن نيثانيال » وهو من أكبر تجار الهند الكارمية فى العهد الفاطمى آنذاك[٧٨] . ووجدت رسائل كثيرة باسم هذا التاجر فى وثائق الجنيزة ، كذلك ورد فى هذه الوثائق أن حلفون نفسه كان فى عدن فى ربيع ٥٢٩ هـ/١١٣٤ م وأنه أرسل فى سنة ٥٣١ هـ/١١٣٦ م خطابين إلى المغرب وإلى أسبانيا وصلا إلى هذه البلاد وهو فى طريق عودته من عدن . وأيضاً أرسل حلفون من ميناء عيذاب خطاباً إلى أخيه رئيس القضاة اليهود فى القاهرة ذكر فيه ضمن ما ذكر أسماء التاجرين اللذين أرسل خطابات لهما . كل هذا يجعلنا نصل إلى أن خطابنا ، الذى به واقعة الهجوم على عدن ، أرسل فى سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٥ م ، وهذا يتفق تماماً مع ما ذكرته المصادر الإسلامية عن تلك الواقعة[٧٩] .

وكان هـــذا الهجوم الذى وقع على عدن يعد من أكبر الأخطار التى تعرضت لها المدينة والتجارة والملاحة فى جنوب البحر الأحمر .

وعن أحداث الهجوم ذكر ابن المجاور أن « ولد العميد » حاكم كيش قام بالهجوم على عدن وقت أن كان يحكمها سبأ وعلى بن أبى الغارات من بنى زريع وذلك بقصد تدميرها والقضاء على تجارتها وإعادة طريق التجارة إلى ما كانت عليه ، أى إلى ميناء جزيرته كيش[٨٠] . وأن حاكم كيش أرسل إلى ميناء عدن أسطولا مكوناً من بعض سفن لم تكن معروفة فى عدن وهى عبارة عن اثنين من البرام الكبار (سفن كبيرة) وثلاثة شفارات (سفن صغرى تصطحب السفن الكبرى) وعشرة جاشوجيات (سفن صغيرة خفيفة) وعدد من الدوانج (اسم شائع لسفن صغيرة خفيفة تسير فى المحيط الهندى)[٨١] . ورست السفن المهاجمة تحت جبل صرح مرسى السفن القادمة إلى عدن . وأرسل قائد الأسطول المهاجم رسائل إلى قائد القلعتين يطلب التسليم واستعمل قائد قلعة الحضرة (سبأ بن سعود) الحيلة والخداع مع العدو إذ أسرع بإرسال طعاماً وشراباً لهم وأرسل لهم رسالة تظاهر فيها

بالإستسلام وقال فيها : « أنا عبدكم والبلد بلدكم ولكم أن تختاروا ما ترون حاكماً عليها » ، ولما وصل هذا الرد لرجال كيش فرحوا به واحتفلوا بالطعام والشراب المرسل لهم . ولقد خاف قائد الأسطول الكيشي من أن يكون وراء الأمر خديعة فحذر رجاله من عدم التمادى فى التفاؤل . لكن تحذيره كان دون جدوى فلقد تمادى الرجال فى شربهم حتى الثمالة . وصدق حدس هذا القائد فلقد استنجد قائد الحضرة بأسطول البحار « رامشت »(٨٢) الذى كان راسياً بسفنه بالقرب من عدن . فوصل بسفنه والقوم سكارى فهجم برجاله عليهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً وقطعوا رؤوسهم . وهرب من نجى من الموت إلى سفنهم منهزمين ، وانزاح بذلك الخطر عن عدن . وأطلق اسم « الجاجم » منذ ذلك الوقت على هذا المكان الذى دارت فيه المعركة بسبب كثرة من قتل فيه(٨٣) .

هذه رواية ابن المجاور ، أما رواية وثيقتى الجنيزة فنحن نوردهما بنصهما لما فيهما من فائدة . وجاء فى الوثيقة الأولى الآتى(٨٤) :

« ... وكان هذه السنة أول الوقت جهز ولد العميد صاحب كيش إلى عدن طلب قطعة من عدن ولما لم يعطوه أخذ الجهاز . وكان جهازه برمتين كبار و٣ شفارات وعشرة جاشجيات وفى الجميع تقدير ٧٠٠ رجل . وقعدوا فى مكلا عدن ينتظروا المراكب ولم يدخلوا البلد فكان فى البلد خوف كثير منهم فلم ينصرهم الله ولم يوفقهم وقتل منهم خلق كثير وزلحت مراكبهم وماتوا عطش وجوع . وكان أول جهاز وصل البلد مركبين الناخدا رامشت فقاتلوهم ولم ينصرهم الله . فلما دخلوا المركبين إلى البندر أطلعوا فيهم الديوان الكثير فانطردوا من البندر وصاروا يدوروا فى البحر ولم ينصرهم الله ومضوا على أقبح صورة مقتولين خاسرين » .

وجاء فى الوثيقة الثانية ما نصه(٨٥) :

« ... وأما أخبارنا وما طرأ علينا بعد سفركم فهو شيء يطول شرحه ولو أجريت عشرة ورقات حتى أصف به بعض ما طرأ علينا لا يكفي ذلك غير أني أختصر بما أكتبه وجميع أصحابنا المسافرين يعرفوكم بما كان وسمعوا ور[وا ان]ما كنا نقاسي العدو شهري زمان هم في البحر ونحن في البر ولم يبق في البلد كبير ولا صغير إلا في الحصون وماتحت الحصون إلا بيوت فارغة ومقاساه عدو ينظرنا وننظره وهم لا يجسروا يخرجوا إلينا وأهل البلد ما معهم جهاز يدخلوا إليهم به إلا كان يخاف من صاحبه . واجتمع في البلد تقدير الف رجل ولو كان قبل معهم في البلد ٥٠٠ رجل لما هربوا الناس من بيوتهم إلا وصلوا والعدو في المكلا والناس قد هربوا من بيوتهم حتى ظفر الله بهم ونزع البحر وهم في صيرة مع الصباح وافتتلوا وأهل البلد وقتل مع ديارهم جماعة وهزت روسهم ونهب ما كان قد نزل لهم بصيرة لأنهم كانوا قد ملكوا صـ[ير]ه ونزلوا بها قاطنين ليل ونهار حتى طرأ عليهم [ا][ذى] طرأ وصاروا في البحر والناس في البر حتى وصلا مركبي رامشت وخرجوا لهم يريدوا يأخذوهم وكان الريح طيب فتشتتوا في البحر يمين ويسار ودخلا المركبين بالسلامة ودخل إليهم العسكر ولم عاد يبق لهم حيلة لا في المكـ[لا] ولا في البلد فرجعوا راحوا خلف الجبل إلى أن طاب لهم الريح وسافروا وشرح خبرهم يطول ولم يمضوا إلا منكسرين مقتولين خاسرين فالله تعالى يريد يكفينا شرهم ولا يريد يرينا وجوههم ... ».

مراجع البحث

(١) — Wiet : L'Egypte Arabe, Paris 1937, T. IV, pp. 166-167.

(٢) — Heyd : Histoire du Commerce, Leipzig 1923, T.I, pp. 26—27.

(٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية ، تعريب محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٤١ ، جـ١ ، ص ٣١٢ .

(٤) — Lamb, A : Avisit to Siraf, Journal of the Malaysian Branch, Royal Asiatic Society, v. 37, 1964, Part I, p. 2.

(٥) ذكر أنها بنيت فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور .

(Blanch Tapier : Les Voyageurs Arabes au Moyen Age, Paris 1937, p. 37).

(٦) أورد ياقوت الحموى (معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦ ، جـ ٥ ، ص١٩٣) أن الفرس قد ذكروا فى كتابهم المسمى بالابستاق وهو عندهم بمثابة التـوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى أن كيـكاوس لما حدث نفسه بصعود السماء صعد فلما غاب عن عيون الناس أمر الله الريح بخذلانه فسقط بسيراف فقال اسقونى ماءاً ولبـناً فسقوه ذلك بذلك المـكان فسمى بذلك لأن شير هو اللبن وآب هو الماء ثم عربت فقلبت الشين إلى السين والباء إلى الفاء فقيل سيراف .

(٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص١٩٣ .

— تقع خرائب سيراف الآن على مسافة ميل من غربى قرية بندر طاهرى ومسافة ٢٠٠ ميل جنوب شرقى ميناء بوشير الفارسى الشهير وما زالت هذه الخرائب قائمة حتى الآن ومن السهل الوصول إليها بالسيارة من بوشير (Lamb : Op. cit, p. 4.)

(٨) — Moqbul Ahmed ; Commerical relations of India with the Arab world, Islamic Culture, v. 38, 1964, p, 148.

(٩) — Reinaud : Relations des Voyages, Paris 1945, II, pp. 14—16.

(١٠) ذكر ياقوت أن بين سيراف والبصرة إذا طاب الهواء سبعة أيام (معجم البلدان جـ٥ ، ص ١٩٣) .

(١١) خطفوا لفظة يستعملها أهل البحر بمعنى يقلعون إلى موضع (أبو يزيد السيرافى : أخبار الصين والهند ، نشر رينو ، جـ٢ ، ص١٥) .

(١٢) مروج الذهب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٨ ، جـ ١ ، ص ١١٧ .

(١٣) — Navdi : Industry and Commeree under the Abbassids, Journal of the Pakistan Historical Society, v. I, Part III, Karachi 1953, P. 259.

(١٤) — Wiet : Les Marchands d'épice, (CHE, Le Caire 1955, p 82).

(١٥) الجلاب ومفردها جلبة ، وهى سفن صغيرة كان يستخدمها رجال البجة فى نقل الحجاج من ميناء جدة عبر البحر الأحمر . ولقد وصف لنا الرحالة ابن جبير طريقة عمل هذه الجلاب . ولمعرفة هذه الطريقة انظر : رحلة ابن جبير (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٦٨) .

(١٦) المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر الحينى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص٣١ .

(١٧) الأصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٩٢ .

(١٨) نفس المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(١٩) نفس المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٢٠) المسالك والممالك ، ص ٣١ .

(٢١) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ١٩٣ (أورد ياقوت أنه زار سيراف وأنه شاهد عمارتها الحسنة وجامعها الجميل الذى أقيمت أعمدته من خشب الساج المستورد) .

(٢٢) — Le Strange ; The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge 1930, p. 258.

(٢٣) المسالك والممالك ، ص ٨٢ .

(٢٤) الأصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٢٥) — The Encyclopeadia of Islam, Leyden 1934 v. IV, p. 444.

(٢٦) المسالك والممالك ، ص ٨٣ .

(٢٧) — Heyd : Histoire du Commerce, I, p. 165.

(٢٨) الأصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٨٣ .

(٢٩) نفس المصدر السابق ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٣٠) نفس المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(٣١) — The Encyclopeadia of Islam, v. IV, p. 444.

(٣٢) الأصطخرى : المسالك ، ص ٨٥ .

(٣٣) ذكر الرحالة اليهودى التطيلى أن هؤلاء اليهود ارتحلوا الى جزيرة كيش بعد أن تدهورت أحوال سيراف فى أواخر القرن الرابع الهجرى .

(Lamb ; Avisit to Sitaf, p. 9).

(٣٤) — Fischel : Jews in the economic and political life of Medieval Islam, London 1937, pp. 31-33.

(٣٥) مروج الذهب ، جـ١ ، ص ٨٩ .

(٣٦) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٣٧) — Reinaud : Op. cit., I, p 53.

(٣٨) — Heyd : Op. cit., I, pp. 28-29.

(٣٩) — Ibid, p. 29.

(٤٠) يقع هذا الكتاب فى جزئين وقام بنشرة رينو Reinaud بعنوان :
"Relations des Voyages, Paris 1848".

(٤١) — Reinaud . Op. cit. I, pp, 14-15.

(٤٢) الخاصكى : عجائب الهند والصين ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٢٨١ ورقة ٥ أ .

(٤٣) يعتبر الملاح ابن ماجد من أشهر الملاحين المسلمين ، ولقد عاش هذا الملاح فى القرن التاسع الهجرى وقام بتأليف عدة كتب فى علم البحار وفنون الملاحة من أشهرها كتابه : « الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد » .

ولقد تحدث فى هذا الكتاب عن الملاحة فى المحيط الهندى والبحر الأحمر منذ القرن الثالث الهجرى وحتى عهده .

(Sauvaget, J ; Instructions Nautiques Arabes pour les mers de l'Inde, [Journal Asiatique, 1948, t. 362, pp. 16-17].

(٤٤) — Sauvaget : Op. cir., p. 18.

(٤٥) الأصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٤٦) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ١٩٣ .

(٤٧) أرسل اليه الأمير السامانى نوح بن نصر خطاباً فيه ٤٠٠ مسألة فى الدين وخاطبه بالإمام . كذلك خاطبه البويهيون بلقب شيخ الاسلام ، توفى فى بغداد سنة ٣٦٨ هـ ودفن فى جبانة الخيزران .

(Encyclopeadia of Islam, v. IV; Leyden 1934; pp.444).

(٤٨) — Encyclopeadia of Islam, v. IV, p. 444.

(٤٩) — Lamb ; Op. cit., p. 9,

(٥٠) معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ١٩٣ .

(٥١) هو مؤرخ فارسى ، كتب كتابه عن تاريخ الفرس باللغة الفارسية وترجم تاريخ الكتاب الى بداية القرن السادس الهجرى (١٢ م) .

(Le Strange : Op. cit., p. 14).

— Le Strange : Op. cit., p. 259.

(٥٢)

(٥٣) فى الوقت الذى كتب فيه الرحالة ابن بطوطة كتابه بالعربية عن رحلته فى بلاد العالم . كتب الرحالة الفارسى حمد الله المستوفى المعاصر له بالفارسية كتابه «نزهة القلوب» وهو يتحدث فيه عن أحوال مملكة فارس وقت استقرار حكم المغول فيها فى عهد مليكهم إيلخان . وهنالك كتاب آخر بالفارسية بعنوان « تاريخى جوزيداه » (التاريخ المختار) الذى بالإضافة لفائدته عن عهد المغول فهو يعطينا جوانب جغرافية غاية فى الأهمية بالنسبة لبلاد فارس قبل حكم المغول لها . (Le Strange . Op. cit', p. 16)

— Le Strange ; Op. cit., p. 257.

(٥٤)

— Lamb ; Op. cit., p. 9.

(٥٥)

(٥٦) معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ١٩٣ .

(٥٧) نفس المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٥٨) نفس المصدر والجزء ، ص ١٩٧ .

— Le Strange ; Op. cit., 257.

(٥٩)

— The Encyclopeadia of Islam, v. II. p. 1041

(٦٠)

(٦١) معجم البلدان ، جـ٧ ، ص ١٩٧ .

(٦٢) ياقوت : نفس المصدر ، جـ٧ ص ٣٠٦ .

(٦٣) معجم البلدان ، جـ٧ ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٦٤) ذكر القلقشندى أن بنى قيس بطن من آل عامر بن صعصعة من العدنانية منازلهم بالبحرين (نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق إبراهيم الابيارى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٤٠٣) .

— Le Strange : Op. cit,, p. 257.

(٦٥)

— Goitein : Two Eyewitness Reportes of an expidition of the King of kish (Qais) against Aden, [Bulletin of the School of Oriental and African studies, v. XVI, 1954, Part 11, p, 248 §

(٦٦)

(٦٧) عادت للبحر الأحمر أهميته التجارية الأولى فى القرن الرابع الهجرى والقرن الخامس وذلك بسبب تعرض التجارة للخطر فى الخليج العربى بسبب قيام ثورة الزنج وثورة القرامطة اللتين نشبتا فى العراق وفى منطقة البحرين . كذلك بسبب تدهور أحوال الخلافة العباسية السياسية والاقتصادية بسبب سيطرة القواد الأتراك على السلطة فيها ولإثارة الاضطرابات فى الدولة وشل نشاطها التجارى . هذا وقد ساءت فى ذات الوقت معاملة السلطات الصينية للتجار العرب ، الأمر الذى أدى إلى توقف هؤلاء التجار عن ارتياد موانى الصين وقصر نشاطهم التجارى على الهند والبحر الأحمر . وقد أدى ذلك إلى عودة النشاط إلى ميناء عدن .

(انظر : عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية .

رسالة دكتوراه ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٥٠ — ٥٥ .

(٦٨) — Goitein : Two Eyewitness, p 248.

(٦٩) — Ibid, p. 347.

(٧٠) — Ibid, d. 248.

(٧١) — Loefgren : Arabische Texte zur kenntnis Der stadt Aden, Leiden 1950, I, p, 46.

(٧٢) كانت عدن تتبع الولاة الصليحيون حكام اليمن الموالين للدولة الفاطمية . وكان الصليحيون يختارون لعدن ولاة يثقون فيهم وكان هؤلاء الولاة يرسلون لهم المكوس التى كانوا يحصلونها من التجارة . واستمر ولاة عدن يرسلون المكوس للصليحيين إلى أن حكمها بنو زريع نيابة عنهم سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م . وأخذ بنو زريع فى ارسال المكوس التى يحصلونها من التجارة إلى السيدة الحرة الصليحية . فكانوا يرسلون لها سنوياً حوالى ١٠٠ ألف دينار . وحاول بنو زريع الاستقلال عن الصليحيين وعدم الدفع لهم لكن السيدة الحرة حاربتهم وهزمتهم وفرضت عليهم أن يدفعوا لها سنوياً ضريبة قدرها ٦٠٠ ألف دينار هى نصف خراج عدن . واستمر بنو زريع على ذلك حتى وقع الخلاف بين السيدة الحرة والخليفة الفاطمى الحافظ بسبب نشرها الدعوة فى اليمن والحجاز لمنافسة الطيب . واستفاد بنو زريع من هذا النزاع اذ سرعان ما استعان بهم الخليفة الحافظ فى الدعوة له والقضاء على حكمها . فأعلن بنو زريع خروجهم مرة ثانيـة عن الصليحيين واستقلالهم بعدن بعد أن توفيت السيدة الحرة سنة ٥٣٢ هـ . وظلت عدن فى حوزة بنى زريع حتى سنة ٥٦٠ هـ .

(محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٧٥ — ٩٣) .

(٧٣) لو أردنا أن نضرب مثلا للأموال التى كان جامع المكوس فى عدن يحصلها من السفن القادمة من الهند نجد أن بلال بن جرير الذى كان نائباً عن بنى زريع فى حكم عدن فى الفترة ما بين ٥٣٤ — ٥٤٧ هـ / ١١٣٩ — ١١٥٢ م قد خلف وراءه ثروة طائلة مما كان يخصه من هذه المكوس .

وأورد عمارة اليمنى الذى كان صديقاً له أنه خلف عند وفاته ٦٥٠٠٠٠ دينار ملكى وأكثر من ٣٠٠ ألف دينار مصرى عدا بضائع وعطور وأسلحة وأشياء نادرة من الصين وشرق أفريقية كان التجار يهادونه بها .

(Goitein : Two Eyewitness, p. 248)

(٧٤) توفى على بن أبى الغارات سنة ٥٤٥ هـ .
(زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، تعريب زكى حسن وحسن أحمد محمود ، جـ١ ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٨١) .

(٧٥) ظل سبأ بن أبى السعود يحكم عدن بمفرده حتى وفاته سنة ٥٣٣ هـ وكان بلال ابن جرير نائباً عنه فى حكمها وكان يحصل له المكوس فيها . فلما مات عين مكانه ابنه على الأغر الذى لم تطل ولايته وتوفى سنة ٥٣٤ هـ .

فكتب بلال بن جرير من عدن الى مولاه محمد المعظم بن سبأ وكان خارج عدن يخبره بوفاة أخيه ويأمره بالمبادرة بالعودة الى عدن ويعده بالوقوف الى جانبه .

فوصل محمد المعظم عدن وحكم مكان والده حتى سنة ٥٤٨ هـ .

(Lofegren : Op. cit., II, Leiden 1950,p. 217).

— تحدثت وثائق الجنيزة عن ثراء بلال هذا لاشتغاله فى تجارة الشرق . فلقد كان شريكا لمضمون بن بندار كبير تجار عدن ووكيل التجار اليهود فيها فى خلال النصف الأول من القرن السادس الهجرى . ولقد ذكرت وثيقة من وثائق الجنيزة أن هذين الشريكين أرسلا فى سفينة أحد الصفقات الكبرى من حاصلات تجارة الشرق تقدر قيمتها بمليون ونصف دينار .

(Goitein : Studies in Islamic, History and Inistitutions, Leiden 1966, p, 359).

(٧٦) حكم بعد وفاة سبأ ابنه على الأغر المرتضى (٥٣٣ — ٥٣٤ هـ) ثم محمد المعظم (٥٣٤ — ٥٤٨هـ) فعمران المكرم (٥٤٨ — ٥٦٠) ثم محمد بن عمران (٥٦٠ — ٥٦٩هـ) وكان تحت وصاية الوزير ياسر بن بلال بن جرير .

(أنظر التسلسل التاريخى للأسرة فى معجم الأنساب لزامباور ، جـ١ ، ص١٨١) .

(٧٧) — Goitein : Two Eyewitness, p. 249.

(٧٨) ورد فى الخطاب أيضاً اسم تاجرين مغربيين كانا فى ذلك الوقت قد عادا لتوهما من رحلتهما فى عدن .

(Goitein : Op. cit, p, 249),

(٧٩) — Goitein : Op, cit, p, 250.

(٨٠) — Loefgren : Op, cit, I, pp, 50-52

(٨١) — Goitein : Two Eyewitness, p. 252.

(٨٢) كان رامشت هذا قرصانا كبيراً من قراصنة بحر القلزم ، وورد اسمه فى وثائق الجنيزة بأنه البحار الكبير وقائد السفن العظيم . كان يتخذ لسفنه مقراً بالقرب من عدن لمباغتة قوافل السفن الداخلة الى الميناء .

انتهى هذا القائد نهاية طيبة وتوقف عن القرصنة فى آخر حياته وذهب لأداء فريضة الحج وتوفى ودفن بمكة سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م .

(Goitein : Studies , p. 338).

(٨٣) Loefgren : Op. cit., I, pp. 50-52.

(٨٤) أورد جوايتين أن هذه الوثيقة موجودة بمكتبة جامعة كمبردج تحت الأرقام الآتيـة :

— University Library , Cambridge , T.S. 20-137.
(Goitein : Two Eyewitness , pp. 254-255).

(٨٥) هذه الوثيقة موجودة بمكتبة جامعة كمبردج تحت الأرقام الآتية :

— Univetsity Library , Cambridge , T.S.18 J 5 f. 5.
(Goitein : Op. cit., p, 255).